ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

التعليم والمؤسسات التعليمية في المغرب الأوسط
من خلال كتاب المعيار للونشريسي

نسيم حسبلاوي
أستاذ التاريخ الوسيط
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة البويرة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

الموضوع الذي بين أيدينا يندرج ضمن المواضيع الثقافية العامة، إلا أنه يتخصص من حيث مصدرية المعلومات من جهة، والجغرافية من جهة ثانية، أما بالنسبة للمصدر فهو كتاب فقهي هام يندرج ضمن "كتب النوازل" التي تعتبر من المصادر الجديدة في استنباط المعلومات التاريخية، وهو كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، وقد قمت بتعريف صاحبه تعريفًا وافيًا، وهو أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م)، وأما بالنسبة للخصوصية الجغرافية تمثلت في الاقتصار على "المغرب الأوسط" فقط، حتى أبتعد قدر المستطاع عن الحشو والتعميم. قسمت الموضوع إلى أربع عناصر: أولها، المؤسسات التعليمية: والتي ذكرت منها المساجد والمدارس والزوايا، والتي توزعت عبر كامل تراب المغرب الأوسط، خاصةً تلمسان وضواحيها لكونها قاعدة الدولة الزيانية (بني عبد الواد)، ثانيها: الأستاذ أو المعلم أو المؤدِّب الذي كان يعيّن في المساجد والمدارس لتعليم القرآن واللغة العربية، وقد خصصت له "أجرة" شهرية من الأحباس (الأوقاف) التي كانت توقف على هاتين المؤسستين، أو كان يجمعها له أولياء الطلبة في القرى والمداشر، ثالث هذه العناصر: الطلبة أو الصبيان الذين كانت عائلاتهم تصرّ على إرسالهم في الصغر إلى إحدى دور التعليم المتوفرة في المكان الذي يعيشون فيه، لحفظ القرآن الكريم وتعلم الكتابة مع اللغة العربية، وأما آخرها فكان عنوانها: مستجدات تعليمية: سماها الونشريسي "بدعًا" منها ما كانت مستحسنة ومنها المستقبحة، وقد أجملت أهمها في النقاط التالية: -كثرة التدوين والتآليف- بناء المدارس – نبذ العلوم العقلية عامة، وعلم الكلام خاصةً- سلبية وأضرار النقل من المختصرات- اتخاذ الكراسي في المساجد بدل الجلوس على الحصير- ذم علماء السلطان – ذم التقليد- ذم التبرك بقبور العلماء والصالحين- تصدّر الجهال للفتوى. وأخيرًا؛ أشير إلى أني عرّفت في هذا المقال بحوالي ١٥ فقيهًا وعالمًا من علماء المغرب الأوسط، ممَنْ تصدّروا الإجابة على النوازل والمسائل الخاصة والعامة التي كانت تطرح هنا أوهناك في مناطق المغرب الأوسط.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ أبريل ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٠٣ أغسطس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

تاريخ التعليم، المغرب الأوسط، الونشريسي، كتاب المعيار، المؤسسات التعليمية

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0045094

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نسيم حسبلاوي. "التعليم والمؤسسات التعليمية في المغرب الأوسط من خلال كتاب المعيار للونشريسي".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص١٠٤ – ١١٤.

مُقَدِّمَةٌ

عرفت بلاد المغرب العملية التعليمية المرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية منذ عصر الفتوحات، فقد كانت للفاتحين جهودا متفاوتة في تعليم البربر مبادئ الإسلام من جهة ولغة القرآن من جهة ثانية، دون أن ننسى بأن الفتح الإسلامي في ذاته كان فتحا ثقافيا قبل أن يكون فتحا عسكريا، ويُعد بناء عقبة بن نافع الفهري لمدينة القيروان في ولايته الأولى (٥٠-٥٥هـ/٦٦٩-٦٧٤م) هو المنطلق الفعلي لهذا المشوار التعليمي الطويل والذي قصده هذا الفاتح الكبير وهو يدور حول مدينته مرفقا بثلة من صحابة النبي محمد (ﷺ) وهو يدعو لها –كما جاء في طبقات إفريقية لأبي العرب تميم-: "اللهم املأها علمًا وفقهًا واعمرها بالمطيعين والعابدين"، ثم جاء

الخليفة الأموي الرابع عمر بن عبد العزيز الذي حكم بين (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧٢٠م) ليعطي دفعة قوية لهذه العملية التعليمية ببلاد المغرب عن طريق البعثة العلمية التي ضمت عشرة من خيار التابعين والتي أرسلها إلى إفريقية بعد توليه الخلافة مباشرة "ليفقهوا أهل إفريقية ويعلمونهم أمر دينهم" فيما أشار إليه المالكي في رياض النفوس، واستمرت هذه العملية صعودًا ونزولاً عبر القرون المتوالية لتصل إلى عصر ابن خلدون (ت.٨٠٨هـ/ ١٤٦٠م) الذي بيّن لنا بما لا يدع مجالا لأدنى شك أن بلاد المغرب كان لديها نظامًا تعليميًا مستقلاً يختلف عن النظام الأندلسي، وذلك في قوله في مقدمة كتابه العِبر: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعًا عن العلوم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر..."

ثم جاءت مرحلة ما بعد ابن خلدون، وهي المرحلة التي سأتناول فيها العملية التعليمية في حيّز جغرافي محدود وهو المغرب الأوسط، من خلال كتاب محدد وهو المعيار المعرب للونشريسي، وقد تناولت هذا الموضوع من خلال أربعة عناصر هي: (المؤسسات التعليمية، المدرّس أو المؤدب أو الأستاذ، الطالب، مستجدات العلم والتعليم).

قبل الشروع في الحديث عن هذه العناصر وجب أن أعرّج على تعريف صاحب كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب" الذي هو المصدر الأساسي في موضوعي هذا، فهو الونشريسي أحمد بن يحيى، واسمه الكامل أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، أشهر من أن يعرّف، ترجم له عدد كبير من المؤرخين، واتفقوا على أنه حامل لواء المذهب المالكي في وقته - نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الهجريين- فقد عاش بين (٨٣٤-٩١٤ه/ ١٤٣٠- ١٥٠٨م)، نشأ بتلمسان وبها أخذ عن شيوخها قبل أن يستقر بمدينة فاس بالمغرب الأقصى، وله هذا الكتاب الشهير في النوازل الذي يبين تبحره وتمكنه في الفقه المالكي، وله غير ذلك من المؤلفات،[١] ذكره صاحب دوحة الناشر بقوله: "البحر الزاخر، الكوكب الباهر، حجة المغاربة، من العلماء الراسخين والأئمة المحققين".[٢]

أولاً: المؤسسات التعليمية

من خلال عدد من النوازل الواقعة بالمغرب الأوسط تبين أن الاهتمام بالمؤسسات التعليمية –أو دور العلم - تعددت دوائره سواء من طرف العلماء أومن طرف الحكام والأمراء أومن طرف عائلات عموم الشعب، فكانت المساجد في المرتبة الأولى في قائمة الأهمية والاهتمام، وهي التي كانت تحتضن مجالس العلماء والفقهاء، فالمدارس التي كانت تخصص للتعليم، ثم الزوايا التي كانت تحتضن حلقات الذاكرين، وطقوس الطرق الصوفية، وقد توزعت هذه الدور والمساجد جغرافيا بين تلمسان وبجاية ومازونة والجزائر وغيرها، إلا أن النوازل التي بين أيدينا تجعل من تلمسان الحاضرة الأكثر حظا من تواجد هذه المؤسسات، ويعود ذلك طبعا لكونها كانت قاعدة ملك الدولة الزيانية - أوبني عبد الواد –[٣]

فالمسجد لم يكن مخصصًا للصلاة فقط، بل كان يمثل مركز الحياة في العصور الوسطى منذ ظهور الإسلام، وأهم مهمة اضطلعت بها الجوامع بعد الصلاة هي العملية التعليمية التي كان يصدرها العالم أو الفقيه، هذا ما يوضحه الونشريسي في جمعه وحصره لما رآه بِدَعا في عصره خاصة ببلدان المغرب تحت عنوان "فصل أذكر فيه المستحسن من البدع وغيره"، حيث تحدث عن بدعة استحداث الكراسي في المساجد لإلقاء الدروس طبعا، ثم ذكر أنه :" قد كان من هدي العلماء في قعودهم أن يجتمع أحدهم في قعوده وينصب ركبتيه أو يقعد على قدميه ويضع مرفقيه على ركبتيه"،[٤] وفي نوازل أخرى ذكر بعض مجالس علماء المغرب الأوسط التي كانت تستقبل الطلبة وتساؤلاتهم أمثال الشريف عبد الله بن أبي عبد الله الشريف التلمساني المتوفى سنة ٧٩٢هـ،[٥] الذي "سُئل في مجلس تفسيره عن حكمة ذكر الذهب دون الياقوت أو نحوه مما هو أرفع قيمة من الذهب"،[٦] والشريف الآخر أبو يحيى محمد بن أبي عبد الله التلمساني المتوفى سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)،[٧] الذي سُئل في مجلس تفسيره أيضًا عدة أسئلة منها "عن الحكمة في تقديم السمع على البصر في غالب التنزيل في نحو٤٠ آية"[٨]، كما اختلف طلبة مازونة حول مسألة عقائدية في مجلس تدريس أحد فقهائها الذي قال: "إن الله رأى أشخاصنا قبل وجودنا وسمع أصواتنا في الأزل ونحن عين العدم..."،[٩] ويُسند هذا ما عرف به الفقيه محمد بن أبي القاسم بن محمد المشذالي البجائي المتوفى سنة ٨٦٦هـ، وهو أحد العلماء الذين أثبت لهم الونشريسي في معياره عدة فتاوى "حيث كان يخطب بالجامع الأعظم ببجاية وتصدر فيه وفي غيره للتدريس".[١٠]

وقد أكد العلامة المجتهد العارف أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني المتوفى سنة (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)[١١] على أهل قرية "تضامن الجماعة في بناء المسجد واتخاذ الإمام والمؤدب"، ملزما الجميع بالمساهمة في ذلك حتى لا تتعطل إقامة الجماعة.[١٢] وجاءت المدارس في المرتبة الثانية من حيث الانتشار، فقد ذكر الونشريسي نازلة ببلدة كبيرة في تلمسان يجري بها ماء من الأعلى إلى الأسفل وبهذا البلد "حمامات ومدارس ودور"،[١٣] -وصيغة الجمع تدل على الكثرة - سُئل عنها أبوعبد الله محمد بن مرزوق الحفيد المتوفى سنة (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)،[١٤] فأجاب برسالته المشهورة: "الروض البهيج في مسائل الخليج"، ونازلة أخرى سئل عنها شيوخ تلمسان –دون تحديد- حول أرض محبسة على وجه المغارسة على "المدرسة اليعقوبية"،[١٥] وهي المدرسة التي ذكر لنا التنبكتي

في نيل الابتهاج أن الإمام العالم الفاضل الولي الصالح الصوفي الزاهد العلامة المحقق ابن زاغو المغراوي التلمساني المتوفى سنة ٨٤٠هـ، درّس بها الحديث والتفسير والعربية والبيان والحساب وغيرها،[١٦] كما اشترى رجل من مازونة بأموال الصدقات دارًا تهدمت كانت مشتملة على بيوت شتى لأناس شتى، ومنها بيت حُبس على مسجد "فأعاد بناءها مدرسة بالقرب من مدرسة أخرى قديمة، وسكنها الطلبة مدة"،[١٧] ثم وقع خلاف بين الباني وأحد المتصدقين تصدّر الإجابة عنه الفقيه أبو علي منصور بن علي بن عثمان البجائي المتوفى بعد سنة (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م).[١٨] وأظهرت نازلة أخرى سئل عنها شيخ شيوخ الونشريسي القاضي سعيد بن محمد العقباني أبوعثمان، المتوفى سنة (٨١١هـ/ ١٤٠٨م)،[١٩] تتعلق ببعض الطلبة القاطنين في أحد المدارس، أرادوا الانتقال من مسكنهم بها إلى مسكن مدرسة أخرى قريبة، بسبب ضيق التي هم فيها، إلا أن القاضي لم يُجز لهم ذلك.[٢٠]

كل هذه النوازل تؤكد كثرة المدارس في المغرب الأوسط خاصةً في تلمسان، وإذا أردنا الاستزادة فإن عبد الرحمان بن خلدون يخبرنا في كتابه العبر أن بعض حكام تلمسان كانوا يبنون المدارس كما فعل أبو حمو موسى الثاني[٢١] الذي بنى مدرسة خاصة للعالمين الجليلين الشهيرين بابني الإمام،[٢٢] وقد جعل أخوه أبو زكرياء يحيى بن خلدون وهو يُعرِّف بتلمسان أن من مباهجها كثرة المدارس وذلك في قوله: "... وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات، فالقصور وعلية الدور والحمامات".[٢٣] ومن الغرابة أن هذه الكثرة لم تُرق للونشريسي مؤلف المعيار، ولا للعالم الجليل التلمساني محمد بن إبراهيم الآبلي،[٢٤] إذ جعلها الأول من البدع غير المستحسنة، أما الثاني فجعلها من مفسدات العلم وذهابه رفقة كثرة التواليف[٢٥]، بينما هي اليوم عندنا من المفاخر كما يذكر الكاتب الكبير عبد الله العروي الذي أكد أن "معظم المدْرسات التي نفخر بها اليوم ويتمتع برونقها السواح الأجانب في فاس وتلمسان وتونس تعود إلى ذلك العهد".[٢٦]

وأما المؤسسة الثالثة التي أوردها الونشريسي في نوازله المجموعة هي الزوايا التي يرتادها المتصوفة، وهي ظاهرة ارتبط انتشارها –كما يشير المؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش – بالمرحلة الأخيرة من العصر المرابطي، وذلك لعدة أسباب ليس هذا مكان حصرها،[٢٧] فقد سُئل فقيه بجاية أبوزيد عبد الرحمان الوغليسي المتوفى سنة (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)[٢٨] عن عادات فقراء الزوايا "من الرقص والتصفيق" فأجاب أن ذلك بدعة وضلال مع أنه رافع لصالح الصوفية الحقة بقوله: "وقد يغترّ من لا يميّز الأمور بما يذكر عن بعض أهل الصدق من الصوفية، مما يقع لهم عند السماع عند صفوه، من حالة صادقة من التواجد... فكيف يتشبه بهم من هو في غمرات الجهل".[٢٩]

كما أورد نازلة أخرى مهمة تحمل في طياتها تفاصيل الحضرة الصوفية، التي تجمع المريدين بشيخهم من بداية الاجتماع إلى نهايته، حيث يهللون ويسبحون ويصلون على النبي (ﷺ)، ويقرأون القرآن أفرادًا وجماعة، وينشدون الأشعار في مدح النبي (ﷺ)، ويقرأ أحدهم فصولا من كتب الوعظ، ثم يأكلون طعامًا من مال الشيخ وخالص كسبه، وفي الأخير يدعوا الشيخ وهم يؤمنون رافعين أكفهم، ويمسحون بها وجوههم ثم ينصرفون[٣٠]، ولم يجد المسئول عن هذه النازلة شيخ الإسلام ومفتي الأنام الحافظ القدوة، العلامة المجتهد العارف أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني -سابق الذكر- بدا من التنويه بهذه الطقوس مؤكدًا أن كله" حسن وأكثره مثنيٌ عليه شرعًا، وليس فيه إن شاء الله موضع للنهي... ولقد حضرت مجتمعهم مرتين فما رأيت إلا تعاونا على البر والتقوى وبعدا من الإثم والطغوى"،[٣١] ليستدل مرة أخرى عن صحة هذا التوجه بكلام والده "شيخ الشيوخ ورئيس العلماء والحكماء، وقاضي تلمسان وبجاية ووهران ومراكش وسلا" سعيد بن محمد العقباني أبو عثمان سابق الذكر، حيث سمعه غير مرة يجيب سائليه عن هذه الجلسات والتجمعات "أن ذلك سداد وصواب وطوع للسنة والكتاب".[٣٢]

وأختم بنازلة أخيرة تبين توجه بعض الخواص إلى استحداث زوايا والتصدق بها للصالح العام، حيث قام أحدهم ببناء دار "سماها زاوية" وخط في جدار قبلتها صورة محراب ثم مات بعد ذلك،[٣٣] فقد يكون أحس بدنو أجله، وأراد أن يكون آخر عهده بالدنيا صدقة جارية.

ثانيًا: المدرّس أو الأستاذ

ويطلق عليه أحيانًا أخرى المؤدّب، وهو عنصر أساسي في العملية التعليمية، لذا كان يخصص له جزء من الأحباس كأجرة على جهوده التعليمية، أو يتفق آباء "الطلبة" على أجرة محددة تكون مشتركة بينهم، وعادة ما تكون شهرية، أما مكان التعليم فكان في هذه الفترة الزمنية – بعد القرن ٩هـ/١٥م – إما في المدارس التي كانت تتواجد خاصةً في المدن أو الحواضر، أو في المساجد التي اشتهرت بهذه المهمة منذ القرون الأولى لظهور الإسلام، والتي انتشرت في الحواضر والبوادي على حد سواء، كما أوضحت سابقًا، أو ثالثًا في الدكاكين التي يملكها المدرّس أو يكتريها المحسنون لممارسة العملية التعليمية، فقد أثبت صاحب المعيار عدة نوازل تظهر تحبيس عقارات على أساتذة ومؤدبين، من ذلك النازلة الواقعة بأسرة العقباني والتي سئل عنها فقهاء بجاية وتونس وفاس، مفادها تحبيس الأمير الزياني الواثق بالله أبوعبد الله محمد[٣٤] عقارًا محتويًا على جنات ومحارث وحمام على عالم من العلماء الأعلام طول حياته ؟ والسؤال بلفظ الفقيه القاضي أبوعبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد بن محمد بن محمد العقباني،[٣٥] وقد أحبس رجل أرضًا على أستاذ لم يعينه ولكن اشترط فيه شروطا تعجيزية "لا توجد اليوم في أحد" -كما

جاء في صيغة السؤال – إلا أن الفقيه العالم ابن مرزوق الحفيد سابق الذكر، أجاز منحها للمدرس الأمثل في الموضع المعني بالحبس،[٣٦] كما أجاز أكثر من واحد صرف ما فضل من أحباس المساجد المخصصة للإمام والمؤذن ولترميم ما تصدع من البنيان، على عملية التدريس التي تضم خاصة المؤدب والطالب [٣٧]، وقد سبق أن رأينا من يحبس عقارات على المدارس، وعمدة هذه الأخيرة المعلم والطالب.

أما ما يتعلق بأجرة المعلم، فقد مال بعض فقهاء المغرب الأوسط إلى إباحتها رغم أن الإمام مالك بن أنس كرّهها، فقد سئل الفقيه سعيد العقباني التلمساني عن أجرة تعليم العلم والإجازة في ذلك؟ فأجاب أن "الإمام مالك في المدونة – لسحنون الإمام- كره الإجارة على تعليم العلم، وقيل بالإباحة، ومذهب المدونة مقدم في النقل كي لا يضيع العلم لضعف أرزاق العلماء، فإن منعوا الإجارة شغلهم طلب المعيشة عن التعليم... وأما توقف التعليم على كتب الإجازة فلم يقله أحد"،[٣٨] لذا شدد الفقهاء على إعطاء المعلم أجره للقادر عليها، وهذا في الحالات التي لا يكون للمعلم دخلا من الأحباس ولا من غيرها، لذا كان تضامن الجماعة واشتراكهم في أجرة الإمام والمؤدب من المرغّب فيه،[٣٩] وحتى وصي اليتيم عليه إخراج الأجرة من ماله لتدفع إلى معلمه، حتى لا يفوته قطار التعليم،[٤٠] كما أشار إلى ذلك الفقيه قاسم العقباني، والذي اتفق مع أهل موضع على تعليم أبنائهم مدة سنة ولم يكملها بسبب انقطاع الطلبة –الأبناء-، على الأولياء منح المعلم أجرة السنة كاملة إلا إذا كان سبب الانقطاع تتعلق بالأستاذ فيعطى فقط المدة التي درسها من العام،[٤١] ولم يسقط هذه الأجرة فقيه بجاية علي بن عثمان أبو الحسن[٤٢] على المديان – الذي عليه ديون-، بل أمهله إلى أن يبيع القاضي عنه شعيرًا كان يملكه، فيعطي منه لأصحاب الديون ومنهم مؤدب أولاده.[٤٣]

وجرت العادة ببلاد المغربين الأوسط والأقصى أن يعطي آباء الصبيان لمعلميهم شمعًا كل سنة بمناسبة مولد النبي محمد (ﷺ)، وقد يكون لتخصيص الشمع علاقة بالبدعة التي ذكرها الونشريسي والتي كانت منتشرة ببلاد المغرب أجمع، وهي إيقاد الشموع ليلة المولد وسابعه،[٤٤] وهي البدعة التي ما تزال منتشرة إلى يومنا هذا في بلدنا الجزائر، وإن كانت مقتصرة فقط بليلة المولد والليلة الموالية، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل تعداه إلى بدعة أسوء وأشنع وأبشع وأخطر وهي المفرقعات والألعاب النارية التي تملأ سماء البلاد قبل ليلة المولد بأيام، وتستمر بعده لأيام. كما اختصت البادية بعادة أخرى تسمى "خميس الطالب"، يلزم جميع الأولياء ممن لديهم أبناء متمدرسين وممن ليس لهم، بمنح كميات من الزبدة للأساتذة في فصل الربيع، ويظهر من هذه العادة رغم الظلم الواضح على الآباء الذين ليس لديهم أبناء متمدرسين أنها تحفيزية للمعلمين كي يأتوا إلى البادية ويمكثوا فيها، ورغم ذلك فإن الآباء المتضررين رفعوا شكوتهم عن طريق سؤال إلى العالم الفقيه قاسم العقباني، الذي لم يتردد في إسقاطها عنهم حتى وإن كانت مما اشترطه المعلم، إلا أن يعطيها هؤلاء أو بعضهم تطوعًا.[٤٥]

ثالثًا: الطالب

كانت الأسر بالمغرب الأوسط حريصة على تعليم أبنائها سواء في الحضر أو في البادية، وكانت هذه العائلات تدفع مصاريف التعليم من جيبها أحيانًا، وأحيانًا أخرى يتكفل بعض المحسنين بتحبيس عقارات عليهم وعلى المدارس المخصصة لذلك، وقد رأينا أمثلة على ذلك، وذهب بعض الفقهاء إلى جواز منح بعض الطلبة من أموال الزكاة إعانة لهم على طلب العلم، كما فعل أهل موضع في زكاة أموالهم التي جمعوها ومنحوها "لشخص غائب في طلب العلم"،[٤٦] ولم يكن هذا الاندفاع والتوجه محض صدفة، وإنما لترغيب العلماء في التعليم وتقدير أهله وتيسير طرقه، ومن ذلك ما أفتى به ابن مرزوق الحفيد من أن "النظر في العلم أفضل من قراءة القرآن"،[٤٧] انطلاقًا من أن قارئ القرآن ينفع نفسه فقط، بينما العالم ينتفع به عموم الناس، كما أسقط الفقيه سعيد العقباني همّ الإجازة على من يريد التعليم – كما أشرت سابقًا-، بل يتصدر للتعليم "من عرف منه العلم والدين... ومن رأى نفسه كفؤا وجب عليه التعليم وجوب عين أو كفاية حسب الموضع الذي هو فيه، وأن الطالب إذا رأى الشيخ أو المعلم يعظمه الناس جاز له الأخذ عنه"،[٤٨] وذلك لتجنب أشباه العلماء والجهال الذين عمت بهم البلوى والمصيبة بعد القرن التاسع الهجري (٩هـ)، حيث كانت "تسند إليهم الصلاة والإمامة... وينتصبون للفتوى والطلب والإلقاء".[٤٩]

وقد أوضحت في نوازل سابقة أن أجرة المعلم الذي لا دخل له، تكون على عاتق أولياء الطلبة بعد اتفاق بين الطرفين، كما أوضحت سابقًا أن بعض طلبة المدارس كانت لهم بها مساكن خاصةً، مثل ذلك الرجل الذي اشترى دارًا بها بيوت شتى، فبنى مكانها مدرسة سكنها الطلبة،[٥٠] أو رغبة بعض الطلبة الانتقال من مساكنهم بمدرستهم إلى مساكن مدرسة أخرى، بسبب ضيق التي هم فيها،[٥١] وقد أوضح لنا ابن خلدون في مقدمته الشهيرة "أن سكنى طلبة العلم بالمدارس في المغرب ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين"،[٥٢] ورغم بقاء عدد الطلبة بهذه المدارس مجهولا فإن هذه المقدمات تدل على التطور الكبير الذي عرفته المدارس في هذه الحقبة الزمنية ببلاد المغرب.

أما عن المستويات التي تميز فئات الطلبة، فإن نوازل المعيار لا تقدم لنا أي صورة عنها، لكن استعانتنا بابن خلدون يمكننا معرفة مستويين اثنين للتعليم ببلاد المغرب أجمع، هما تعليم الصبا – أي الصبيان- وهو الشبيه بالتعليم الابتدائي في أيامنا، ثم التعليم الثاني،[٥٣] وهو الشبيه بالتعليم الثانوي عندنا اليوم وما بعده، ويمكن التفريق بينهما في النوازل باستخدام مصطلحين متباينين الأول هو "الصبيان"، وهم تلاميذ المرحلة الأولى أو الابتدائية، ومصطلح "الطلبة"، وهم طلاب المرحلة الثانية، وفي نازلة "طلبة

مازونة" المشار إليها سابقًا دليل على ما ذهبت إليه، حيث اختلفوا في مسألة من العقائد بمجلس أحد الفقهاء،[٥٤] ولا يمكن لتلاميذ المرحلة الابتدائية أن يختلفوا، أو يكون لهم رأي في مسائل بسيطة، فما بالك بمسائل العقيدة، الأمر الذي يؤكد أن أصحاب هذه النازلة كانوا من المستوى الثاني أو العالي، وقد جاءنا المعيار بدليل آخر من طلبة قسنطينة الذين ساهموا في النقاش مع شيخهم الزنديوي قاضي قسنطينة وفقيهها المتوفى سنة ٨٨٢هـ،[٥٥] في مسألة "وجوب قراءة سورة الفاتحة في الصلاة، وعدم وجوب السر أو الجهر بها؟"[٥٦] وقد أثبت الونشريسي جواب ورأي عدد منهم.

وأما أوقات التعليم، فإن النوازل التي بين أيدينا لا توضحها بإسهاب، لكن نازلة المؤلف نفسه بعد تعيينه مدرسا للفقه بفاس من طرف حكام المغرب الأقصى، تقدم لنا صورة واضحة حول هذا الموضوع، فمقارنة بين توجه الونشريسي في التعليم، وجواب قاضي الجماعة في تلمسان الفقيه محمد بن يوسف السنوسي أبوعبد الله المتوفى سنة ٨٩٥هـ[٥٧] على هذه النازلة، يتبين أن أوقات التعليم كان فيها تنوع واختلاف حسب عادات المكان، حيث تراوحت بين ثلاثة أشهر وجل السنة، بما فيها فصل الصيف، إلا أن التركيز كان على فصل الشتاء دون غيره، ثم تخفف درجات المسائل المدروسة تدريجيا، فقد جاء في سؤال الونشريسي الذي أرسله إلى قاضي الجماعة في تلمسان الشيخ إبراهيم بن قاسم بن سعيد العقباني المتوفى سنة ٨٨٠هـ،[٥٨] أنه وجد وهو بفاس "عادة الكثير من مدرسي البلد والناحية الاقتصار على تدريس شهرين أو ثلاثة من السنة إلا ما شذ منهم"،[٥٩] بينما أكد هو أنه يدرس جل السنة، وفي جواب السنوسي له أوضح أن العادة لدى الشيخ "قديمًا وحديثًا" هي التركيز على فصل الشتاء في التعليم، بسرد عدد قليل من المسائل الصعبة، وإفراغ الوسع في نقل آراء العلماء فيها، ولا يعطي المدرس لنفسه فيه راحة، أما في باقي الفصول فيقتصرون على بيان صورة كل مسألة مع نقل ما لابد منه من الأبحاث والأقوال حولها، فلا يأتي الشتاء الموالي حتى يكون المتعلم فهم المسائل ما يؤهله لفهم مسائل صعبة جديدة، أما ما اعتاده بعض المدرسين في زمنه الذي وصفه بالفاسد، من إقراء فصل الشتاء فقط فهو مرفوض ومنبوذ.[٦٠]

وأما المناهج المدروسة، فإن كتاب المعيار فيما يتعلق بالمغرب الأوسط لا يقدم لنا إلا إشارات صغيرة حولها، وبإضافة ما ذكره ابن خلدون في مقدمته، ودراسة عميقة لتراجم العلماء المساهمين في النوازل خلال هذه الفترة الزمنية، يمكننا وضع صورة قريبة من الكمال لكنه خارج عن نطاق الدراسة المقتصرة على كتاب المعيار للونشريسي.

رابعًا: بعض مستجدات التعليم

لقد تطرق الونشريسي إلى عدة مستجدات طرأت على العملية التعليمية في زمانه بالمغرب عمومًا، أدرجها تحت عنوان "فصل أذكر فيه المستحسن من البدع وغيره"، وقد عرّج على كثير من قضايا التعليم التي قسمتها إلى قضايا إيجابية وأخرى سلبية، ولم أتبع تقسيم المؤلف الذي عدّ معظم ما ذكر من المستجدات بدعًا سلبية،[٦١] وإنما وضعت ما رأيته إيجابيا في الإيجابيات وما رأيته سلبيًا في السلبيات:

قضايا إيجابية: (استنتجت منها)

- تدوين العلوم: حفظًا للشريعة من الضياع.
- كثرة التواليف وبناء المدارس: جعلهما الونشريسي من أسباب تراجع العلم مستدلاً بالفقيه التلمساني محمد بن إبراهيم الآبلي من شيوخ عبد الرحمان بن خلدون الذي قال: "إنما أفسد العلم كثرة التواليف، وإنما أذهبه بنيان المدارس"، وقد وافقه تلميذه الذي عنون الفصل الرابع والثلاثون من مقدمته المشهورة بأن "كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل".[٦٢]
- هجومه على علماء السلاطين وجعلهم شر العلماء.
- تقديس الكتابة وحب الكتاب، فإذا وجد أحد المارة "قرطاسا" - ورقة- قبّله ووضعه على رأسه، ثم يرفعه إلى موضع طاهر، كما نفعل اليوم مع قطع الخبز خاصةً التي نجدها ملقاة بالشوارع، وتبين نازلة في هذا المعنى، بيع كتاب في المزاد وصل سعره ١٤ دينار ذهب وربع دينار.[٦٣]
- ابتداع علم الكلام والجدل وعلم القياس والنظر والاستدلال بأدلة المعاني والمعقول، وإن كانت هذه العلوم ليست من وضع المغاربة، إلا أنها وصلت إلى مجالسهم ومدارسهم، وتخصص فيها بعض علمائهم، وإشارة الونشريسي لها في البدع المستقبحة دليل على انتشارها في بلاد المغرب.

قضايا سلبية: (استنتجت منها)

- نقل الناس من المختصرات الغريبة أربابها ونسبة ظواهر ما فيها إلى أمهاتها، وفيها قال ابن خلدون: "أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم".[٦٤]
- الجلوس على الكراسي بدل الحصير(الأرض)، استحدثها المنتسبون للعلم، بينما كان السابقون يجلسون على الأرض.
- خلط علم الطب بالسحر والشعوذة، وهوما يتعاطاه كثير من مدّعي علم الطب ومعرفة الأدواء وصناعة اليد من حيل وتخيل وإيهام العقل، حسب تعبير الونشريسي، وهو أمر لم نسلم منه حتى في أيامنا.
- التبرك بقبور العلماء والشهداء والصالحين، وهو أمر ما زالت شريحة كبيرة من مجتمعاتنا تنتحله وتمارسه، وإن كان اليوم اقتصر على الصالحين فقط.

- ذم التقليد، فقد نقل عن المقري الجد – جد أحمد بن محمد المقري صاحب نفح الطيب- كلامًا طويلاً ذم فيه التقليد وما نتج عنه من سلبيات وخلص إلى أن "التقليد مذموم، وأقبح منه تحيّز الأقطار وتعصب النظار... واعلم أن أصل التقليد هو المعصية التي هي كالطبع لهذا النوع لأنه غلب عليه حب الخيال والوهم وقلّ فيه طاعة العقل والفهم...".[٦٥]
- تعاطي الجهال العلم وانتصابهم للفتوى والطلب والإلقاء، وتقديمهم على العلماء، وتولية المناصب الشرعية – التي تحتاج إلى أهل العلم- بالتوارث والجاه لمن لا يصلح، وهي ظاهرة ما تزال مجتمعاتنا المغاربية والعربية تعاني منها في عصرنا هذا والله الهادي إلى سواء السبيل.

خَاتِمَةٌ

يُخطئ من يظن أن هذه الفترة الزمنية التي تمثل عصر ما بعد ابن خلدون، عرفت فيه العملية التعليمية تراجعًا أو توقفًا أو انتكاسة، لأن الشواهد التي بين أيدينا والتي أشرنا إليها في الموضوع تبين استمرار دوران عجلة العملية التعليمية بشكل إيجابي ومحمود، فكل الأسس التي قامت عليها هذه العملية عرفت انتعاشه، أو كانت حلقاتها تدور دورانا منتظمًا في أقل تقدير.

كانت دور العلم متنوعة ومتعددة ومنتشرة عبر مختلف أقطار المغرب الأوسط، سواء تعلق الأمر بالمساجد الجامعة أو المساجد الصغيرة التي انتشرت في المدن والبوادي، وإلى جانبها رأينا المدارس التي كانت تستقبل الطلبة من مختلف الأعمار، ثم وجدناها طبقت حتى النظام الداخلي المعروف في أيامنا، حيث كان الطلبة يبيتون فيها سنين عديدة، والتي أكّد لنا الونشريسي أنها كانت كثيرة، وجعلها من مفسدات التعليم، كما كانت الزوايا المنتشرة هنا وهناك -خاصةً في هذا العصر الذي كثرت فيه الطرق الصوفية-، والدكاكين أو الحوانيت التي كان يكتريها الأساتذة أو الآباء تقوم بدور مساعد وهام في نشر التعليم. وكان المعلّم أو المؤدّب يقوم بدوره التعليمي في المدن وفي البوادي على السواء، وكان له أجر على ذلك سواء من الأحباس أومن أهل المتعلمين، الذين سعوا لتعليم أبنائهم، وقد أجاز بعض الفقهاء منح جزء من أموال الزكاة للتلاميذ والطلبة الذين لا يملكون مصاريف التعليم.

أما الأساس الثالث للعملية التعليمية وهو المنهج، فقد كان واضحًا مما تقدم أنه اقتصر على العلوم الدينية التي كان على رأسها القرآن الكريم وحديث النبي (ﷺ)، ثم يأتي الفقه (الحلال والحرام) في المرتبة الثانية، والذي اختص بمذهب الإمام مالك، لكون كل الفقهاء والعلماء والمؤدبين في ذلك الوقت كانوا مالكية، أما في المرتبة الثالثة فقد جاء "علم الكلام والجدل وعلم القياس والنظر والاستدلال بأدلة المعاني والمعقول"، وهي علوم دخيلة كما أشار الونشريسي الذي اعترض على تدريسها.

جدول يبين النوازل المدرجة في الموضوع وتواجدها في كتاب المعيار:

النازلة	مكان وقوعها	الفقيه المجيب عنها /سنة وفاته	تواجدها في الموضوع/ ص	تواجدها في كتاب المعيار ج/ ص
استحداث الكراسي في المساجد للتدريس	المغربين الأوسط والأقصى	أحمد بن أحمد الونشريسي – صاحب المعيار- (ت. ٩١٤ه / ١٥٠٨م)	٠٢	٢/ ٤٧٧
مسألة في التفسير:الحكمة في ذكر الذهب دون الياقوت أونحوه..	تلمسان	الشريف عبد الله بن أبي عبد الله الشريف التلمساني (ت. ٧٩٢ه)	٠٢	١٢/ ٢٣٦
مسألة في التفسير : الحكمة في تقديم السمع على البصر في غالب القرآن	تلمسان	محمد بن أبي عبد الله الشريف التلمساني (ت. ٨٣٣ه / ١٤٢٩م)	٠٢	١٢/ ٣٢٥...
اختلاف طلبة مازونة حول مسألة عقائدية	مازونة	/	٠٢	١٢/ ٣٤٥
تضامن الجماعة في بناء مسجد واتخاذ الإمام والمؤدب	المغرب الأوسط	قاسم بن سعيد العقباني أبوالفضل (ت. ٨٥٤ه / ١٤٥٠م)	٠٢	١/ ١٣٩
بلدة يجري بها ماء من الأعلى إلى الأسفل	تلمسان	محمد بن مرزوق الحفيد أبوعبد الله (ت. ٨٤٢ه/ ١٤٣٨م)	٠٢-٠٣	٥/ ٣٣٤
أرض محبسة على المدرسة اليعقوبية	تلمسان	شيوخ تلمسان	٠٣	٨/ ١٧٥
رجل اشترى دارا أعاد بناءها مدرسة	مازونة	منصور بن علي بن عثمان البجائي أبو علي (ت.٨٥٠ه /١٤٤٦م)	٠٣	٧/ ٢٤٨
طلبة يسكنون مدرسة أرادوا الانتقال إلى مساكن أخرى	تلمسان	سعيد بن محمد العقباني أبوعثمان (ت.٨١١ه / ١٤٠٨م)	٠٣	٧/ ٢٦٣
ذم كثرة المدارس والتآليف	بلاد المغرب	الونشريسي (المؤلف) + محمد بن إبراهيم الآبلي (ت. ٧٥٧ه / ١٣٤٧م)	٠٣	٢/ ٤٧٩
عادات فقراء الزوايا	المغربين الأوسط والأقصى	عبد الرحمان الوغليسي البجائي أبوزيد (ت. ٧٨٦ه / ١٣٨٤م)	٠٤	١١/ ٣٤
عادات فقراء الصوفية	المغرب الأوسط	قاسم بن سعيد بن محمد العقباني	٠٤	١١/ ٤٨
عادات فقراء الصوفية	المغرب الأوسط	سعيد بن محمد العقباني أبو عثمان	٠٤	١١/ ٤٨
بنى زاوية	المغرب الأوسط	/	٠٤	٧/ ٢٩٦
حاكم زياني يحبس عقارًا على عالم	تلمسان	وقعت لآل العقباني	٠٥	٧/ ٢٤٨...
رجل يحبس أرضا على أستاذ بشروط	تلمسان	ابن مرزوق الحفيد	٠٥	٧/ ٤٣- ٤٤
ما فضل من أحباس المساجد يصرف على التدريس	بلاد المغرب	/	٠٥	٧/ ٢١٥-٢١٦
أجرة تعليم العلم	المغرب	سعيد بن محمد العقباني	٠٥	٢/ ٢٣٦، ١١/

النازلة	مكان وقوعها	الفقيه المجيب عنها /سنة وفاته	تواجدها في الموضوع/ ص	تواجدها في كتاب المعيار ج/ ص
	الأوسط			١٦-١٧
وصي اليتيم وأجرة المعلم	المغرب الأوسط	قاسم بن سعيد بن محمد العقباني	٠٦	٩/ ٤٣٤
معلم انقطع عنه الطلبة قبل إتمام العام	المغرب الأوسط	قاسم بن محمد العقباني + علي بن عثمان أبوالحسن	٠٦	٨/ ٢٦٠
صاحب ديون عليه أجرة مؤدب أولاده	بجاية	علي بن عثمان	٠٦	٥/ ٩٣
هدية المولد النبوي للمعلمين (عادة)	المغرب الأوسط	الونشريسي (المؤلف)	٠٦	٨/ ٢٥٤
تقديم الزبدة للمعلمين (عادة)	المغرب الأوسط	قاسم بن محمد العقباني	٠٦	٨/ ٢٦١
جمع الزكاة لطالب علم	المغرب الأوسط	/	٠٦	١/ ٣٩٤
النظر في العلم أفضل من قراءة القرآن	عامة	ابن مرزوق الحفيد	٠٧	١/ ١٩٧-١٩٨
آراء طلبة قسنطينة حول مسألة وجوب سورة الفاتحة	قسنطينة	مع الزنديوي (ت.٨٨٢هـ)	٠٨	١/ ١٩٧-١٩٨
أوقات التعليم	المغربين الأوسط والأقصى	الونشريسي (المؤلف) + محمد بن يوسف السنوسي أبوعبد الله (ت. ٨٩٥هـ)	٠٨	٧/ ٣٤٧...
بدع مستحسنة ومستقبحة	بلاد المغرب	الونشريسي (المؤلف)	٠٩	٢/ ٤٦١-٥٤٥
بيع كتاب في المزاد	بجاية	أحمد بن محمد بن عيسى البجائي	٠٩	٦/ ١٥٧

الهَوامِشُ:

(١) أحمد بابا التنبكتي. **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف، عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية،١٩٨٩م، ط.١، رقم. ١٣٠، ص. ١٣٥-١٣٦. محمد بن مريم التلمساني. **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر: منشورات السهل، ٢٠٠٩م، ص.٨٠- ٨١. يُنظر: أحمد ابن القاضي. **لُقط الفرائد من لفاظة حُقق الفوائد**، ضمن: **موسوعة أعلام المغرب**، تنسيق وتحقيق محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦، ط.١، ج.٢، ص.٨٢٣. عبد الحق حميش ومحفوظ بوكراع. **موسوعة تراجم علماء الجزائر- علماء تلمسان وتوات**-، الجزائر: دار زمورة للنشر والتوزيع، ٢٠١١م، ص.٢٦١-٢٦٥.

(٢) محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني. **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، الرباط :١٩٧٧، رقم.٣٢، ص. ٤٧-٤٨.

(٣) عن دولة بني عبد الواد يُنظر: ابن الأحمر. **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**، تقديم وتحقيق هاني سلامة، مصر: مكتبة الثقافية الدينية، ٢٠٠١م، ط.١، ص. ٥٩ وما بعدها. يحيى بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية، ١٩٨٠م، ص. ٢٠٣ وما بعدها. عبد الرحمان بن خلدون. **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، الأردن-السعودية: بيت الأفكار الدولية، ص.١٨٤٦ وما بعدها. حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته**، لبنان: العصر الحديث للنشر، ١٩٩٢م، ط.١، مج.٢، ج.٢، ص. ٢٠٧ وما بعدها وج.٣، ص. ٥ وما بعدها.

(٤) أحمد بن يحيى الونشريسي. **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، إشراف، محمد حجي، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١م، ط.١، ج.٢، ص. ٤٧٧.

(٥) الشريف عبد الله بن أبي عبد الله الشريف: هكذا ذكره الونشريسي في المعيار، ووصفه ابن مريم بالعلامة المحقق الحافظ الجليل المتفنن المتقن، من أكابر علماء تلمسان ومحققيهم، ولد سنة ٧٤٨هـ، وتوفي سنة ٧٩٢هـ. (الونشريسي. نفسه، ج.٨، ص. ٢٣٥، ابن مريم. نفسه، ص. ١٣٩-١٤٣.

(٦) الونشريسي. المعيار، ج.١٢، ص. ٢٣٦.

(٧) **الشريف أبو يحيى محمد بن أبي عبد الله التلمساني**: وصفه ابن مريم أنه آية من آيات الله في القيام بتحقيق العلوم، علامة محققًا نظارًا حجة، ونقلاً عن شيخ الونشريسي محمد بن العباس قوله: "الإمام العلامة الأوحد شريف العلماء وعالم الشرفاء آخر المفسرين من علماء الظاهر والباطن"، توفي سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م). ابن مريم. نفسه، ص. ١٤٩-١٥٠. يُنظر: محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف. **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، خرج حواشيه، عبد المجيد خيالي، لبنان: دار الكتب العلمية،٢٠٠٣، ط.١، رقم.٩٤٣، ص. ٣٦٥.

(٨) الونشريسي. المعيار، ج.١٢، ص. ٣٢٥ وما بعدها.

(٩) نفسه، ج.١٢، ص. ٣٤٥.

(١٠) **محمد بن أبي القاسم (بن بلقاسم) المشذالي البجائي**: علامتها وفقيهها وخطيبها ومفتيها المحقق النظار، حسب مخلوف، وقال فيه التنبكتي: "كان إمامًا كبيرًا مقدمًا على أهل عصره في الفقه ذو وجاهة عند صاحب تونس، له عدة مؤلفات..."، توفي حسب وفيات الونشريسي سنة (٨٦٦هـ/١٤٦١م). (مخلوف. مصدر سابق، رقم.٩٩٢، ص.٣٧٩. التنبكتي. مصدر سابق، رقم.٦٥٤، ص. ٥٣٨-٥٣٩. أحمد بن يحيى الونشريسي. **وفيات**، ضمن **موسوعة أعلام المغرب**، مصدر سابق، ج.٢، ص.٧٧٠). وعن المسجد في المغرب الإسلامي يتحدث كمال السيد أبو مصطفى "كان يموج بالفقهاء والعلماء والطلاب، وكان الشيوخ يجلسون عند أحد الأعمدة ويتحلق الطلاب حولهم"، (كمال السيد أبو مصطفى. **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٦، ص.١١٥).

(١١) **قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني أبو الفضل**: وصفه ابن مريم "بشيخ الإسلام ومفتي الأنام، الحافظ القدوة العلامة المجتهد العارف، ولي خطة القضاء في تلمسان وأحرز في العلوم قصب السبق وحازه"، وذكره المازوني في نوازله في مواضع كثيرة، وعن هذا الأخير نقل الونشريسي في نوازله، وجعله في وفياته، من وفيات سنة (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م). (ابن مريم. نفسه، ص. ١٦٩-١٧٠. التنبكتي. نفسه، رقم.٤٧٠، ص. ٣٦٥-٣٦٦. مخلوف. نفسه، رقم.٩٥٢، ص. ٣٦٧-٣٦٨. أبو زكرياء يحيى بن موسى المغيلي المازوني. **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق مختار حساني، الجزائر: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٩م، ط.١، صفحات متعددة. الونشريسي. وفيات، ص.٧٦٠)

(١٢) الونشريسي. المعيار، ج.١، ص. ١٣٩.

(١٣) نفسه، ج.٥، ص. ٣٣٤.

(١٤) **محمد بن مرزوق الحفيد أبوعبد الله**: ذكره التنبكتي وابن مريم والمقري التلمساني، والونشريسي في وفياته وغيرهم، وأثبت له المازوني والونشريسي عشرات المسائل، وصفوه "بالعلامة الحجة الحافظ المحقق الكبير، قاضي الجماعة في تلمسان... حجة الله في خلقه المفتي الشهير، سيد العلماء الجلة وإمام أئمة الملة وآخر السادات الأعلام..."، ذكروا له عدة مؤلفات ورسائل تفوق العشرين، ولد سنة ٧٦٦هـ، وتوفي سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م). (ابن مريم. نفسه، ص. ٢٢٤ وما بعدها، التنبكتي. مصدر سابق، رقم. ٦١١، ص.٤٩٩-٥١٠، الونشريسي. **وفيات**، ص. ٧٤٨، مخلوف. مصدر سابق، رقم.٩٤٥، ص. ٣٦٤-٣٦٥. أحمد بن محمد المقري التلمساني. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ج.٧، ص. ٣٩٤ وما بعدها).

(١٥) الونشريسي. **المعيار**، ج.٨، ص. ١٧٥. يُنظر: السيد أبو مصطفى. مرجع سابق، ص. ١١٨-١١٩.

(١٦) أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن زاغو أبو العباس المغراوي التلمساني: أشاد بعلمه التنبكتي ناقلاً عن القلصادي الأندلسي، وجعل وفاته سنة ٨٤٠هـ، بينما عده ابن مريم وابن القاضي من وفيات سنة ٨٤٥هـ. (التنبكتي. نفسه، رقم.١٠٦، ص. ١١٨، ابن مريم. نفسه، ص.٧٠-٧٢. ابن القاضي. مصدر سابق، ص.٧٥١، مخلوف. نفسه، رقم.٩٤٨، ص. ٣٦٦).

(١٧) الونشريسي. المعيار، ج.٧، ص. ٢٤٨.

(١٨) منصور بن علي بن عثمان أبو علي البجائي: "عالمها ومفتيها، العلامة الفقيه الحجة"، بهذا وصفه التنبكتي، وذكر أنه كان حيًا سنة ٨٥٠هـ، وقد ذكر الونشريسي والمازوني بعض فتاويه. (التنبكتي: نفسه، رقم. ٥٧٢، ص. ٦١٣).

(١٩) **سعيد بن محمد العقباني أبوعثمان**: هو والد الفقيه قاسم العقباني سابق الذكر، أشاد بعلمه كثيرون منهم ابن فرحون الذي قال فيه: "إمام عالم فاضل فقيه مذهب مالك، وصدارته في العلم مشهورة، ولي قضاء

بجاية وتلمسان وله في ولاية القضاء مدة تزيد على أربعين سنة"، عاصره يحيى بن خلدون الذي ذكر أنه تفنن في علوم كثيرة وولي القضاء في تلمسان وبجاية ومراكش وسلا ووهران وهنين، وكان يقال له حسب ابن مريم "رئيس العلماء والعقلاء"، ولد سنة ٧٢٠هـ، وتوفي سنة (٨١١هـ/ ١٤٠٨م)، بينما عدّه الونشريسي وابن القاضي من وفيات سنة ٨١٠هـ. (ابن فرحون المالكي. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: مكتبة دار الحديث، ٢٠٠٥، ط.٢، ج.١، ص.٣٤٣. أبو زكريا يحيى بن خلدون. مصدر سابق، ص. ١٢٣.ابن مريم. مصدر سابق، ص. ١٢٩-١٣٠. ابن القاضي. مصدر سابق، ص.٧٢٦. الونشريسي. **وفيات**، ص. ٧٢٦). يُنظر أيضًا: التنبكتي: نفسه، رقم:١٩٩، ص١٨٩، مخلوف. مصدر سابق، رقم.٩٣١، ص. ٣٦٠-٣٦١، حميش: مرجع سابق، ص٢١٠-٢١١.

(٢٠) الونشريسي. المعيار، ج.٧، ص. ٢٦٣.

(٢١) أبو حمو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن تولى عدة مرات بين (٧٦٠-٧٨٩هـ/ ١٣٥٩-١٣٨٧م). (ابن الأحمر. مصدر سابق، ص. ٧٦ وما بعدها) يُنظر عنه: عبد الحميد حاجيات. **أبو حمو موسى الزياني –حياته وآثاره-**. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.

(٢٢) ابني الإمام هما الأخوين أبو موسى عيسى، وأبو زيد عبد الرحمان، ابني محمد بن عبد الله بن الإمام التلمساني: ذكرهما ابن فرحون بأنهما:" فاضلا المغرب في وقتهما وكانا خصيصين بالسلطان أبي الحسن المريني...لهما التصانيف المفيدة والعلوم النفيسة"، وأشاد بهما التنبكتي وابن مريم والمقري التلمساني وعبد الرحمان بن خلدون في تاريخه، والونشريسي في معياره وفي وفياته، توفي أبوموسى سنة ٧٥٠هـ، بينما توفي أخوه قبله في سنة ٧٤٣هـ. (ابن فرحون. مصدر سابق، ج.١، ص. ٤١٦. الونشريسي. **وفيات**، ص.٦٣٧ و٦٥٣). يُنظر أيضًا: التنبكتي. مصدر سابق، رقم. ٢٩٠، ص. ٢٤٥-٢٤٨ ورقم. ٣٦٥، ص. ٢٩١-٢٩٧. عبد الرحمان بن خلدون. مصدر سابق، ص. ٢٠٤٨-٢٠٤٩. يحيى بن خلدون. مصدر سابق، رقم. ١٠٠ و١٠١، ص. ١٣٠. عبد الحق حميش. مرجع سابق، ص. ١٨٦. وقد ذكر ابن خلدون عبد الرحمان أن أبا حمو الزياني سابق الذكر لما حكم تلمسان استدعى من فاس أبوعبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني فزوجه ابنته وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه، وأقام يدرس العلم إلى أن مات. (العبر. نفسه، ص. ٢٠٥٨).

(٢٣) يحيى بن خلدون. نفسه، ص. ٨٦. وفي السياق نفسه يذكر لنا المقري التلمساني في النفح أنه رأى أبيات شعر هي من بدائع الدنيا، مكتوبة على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزياني، [قد يكون الثاني الذي حكم بين ٧٩١-٧٩٥هـ/١٣٨٩-١٣٩٣م]. (المقري التلمساني. مصدر سابق، ج.٨، ص. ١٨٢).

(٢٤) **محمد بن إبراهيم الآبلي**: من شيوخ ابن خلدون عبد الرحمان، والذي ذكر أن أصله من الأندلس ومنشأه في تلمسان، التي ولد بها سنة ٦٨١هـ، وكان مائلاً إلى العقليات فمهر في المنطق والحساب، وأخذ عنه ذلك، كانت وفاته سنة ٧٥٧هـ، كذلك جعل وفاته صاحب لُقط الفرائد. (ابن خلدون. العبر، ص. ٢٠٤٩-٢٠٥٠. ابن القاضي. مصدر سابق، ص ٦٦٣).

(٢٥) الونشريسي. المعيار، ج.٢، ص. ٤٧٩.

(٢٦) عبد الله العروي. **مجمل تاريخ المغرب**، بيروت-الدار البيضاء: المركز الثقافي الغربي، ١٩٩٤، ط.١، ج.٢، ص. ٢١٨.

(٢٧) إبراهيم القادري بوتشيش. **المغرب والأندلس في عصر المرابطين– المجتمع، الذهنيات، الأولياء-**. تطوان: منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ٢٠٠٤، ط.٢، ص. ١٢٥. وفي السياق نفسه يشير محمد فتحة في كتابه القيم عن النوازل "أن الموحدين [أيضًا] لم يقفوا موقفًا معاديًا من تيار التصوف بل بالعكس، في عهدهم ظهر أقطاب التصوف المغربي واتسع نطاقه ليشمل البوادي والمناطق النائية". (محمد فتحة. **النوازل الفقهية والمجتمع –أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن ٦ إلى ٩هـ/١٢- ١٥م** -.الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٩، ص. ١٦٠).

(٢٨) **الوغليسي عبد الرحمان بن أحمد البجائي**: هو الشيخ الفقيه الصالح المفتي، وهو شيخ الجماعة ببجاية الفقيه الأصولي المحدث، عمدة أهل زمانه وفريد عصره وأوانه (أحمد بن قنفذ القسنطيني. **الوفيات**، تحقيق عادل نويهض، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣، ط.٤، رقم.٧٨٦، ص. ٣٧٦. مخلوف. مصدر سابق، رقم.٨٧٩، ص. ٣٤٢). وقد ذكر له المازوني في نوازله عدة فتاوى. (ج.١، ص. ٨٧ و١٩١، ج.٢، ص. ٢٤٢ وغيرها).

(٢٩) الونشريسي. المعيار، ج.١١، ص. ٣٤. ولما تحدث أحمد ابن قنفذ القسنطيني عن جده لأمه الشيخ يوسف بن يعقوب الملاريّ، قال أنه توفي سنة ٧٦٤هـ، ودفن بزاويته بملارة على مرحلتين إلى الغرب من قسنطينة. (الوفيات رقم. ٧٦٤، ص.٣٦٢-٣٦٣).

(٣٠) الونشريسي. المعيار، ج.١١، ص.٤٨ وما بعدها.

(٣١) نفسه، ج.١١، ص ص.٤٨-٧٣.

(٣٢) نفسه. وفي هذا الصدد يشير محمد فتحة أن الإقبال على المتصوفة، والاعتقاد بكراماتهم لم يقتصر على عوام الناس، بل تعداه إلى الفقهاء وكثير من رجالات العصبيات الحاكمة بدء بالسلاطين أنفسهم. (محمد فتحة. نفسه، ص. ١٦٤).

(٣٣) الونشريسي، نفسه، ج.٧، ص. ٢٩٦.

(٣٤) هو أبوعبد الله محمد (الثاني) بن أبي عمران موسى بن يوسف تولى سنة (٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م). مؤنس. مرجع سابق، مج.٢، ج.٣، ص. ١١٤.

(٣٥) الونشريسي. نفسه، ج.٧، ص. ٢٤٨.

(٣٦) الونشريسي. نفسه، ج.٧، ص. ٤٣-٤٤.

(٣٧) نفسه، ج.٧، ص. ٢١٥-٢١٦. عن الأحباس ووجوه صرفها يُنظر: محمد فتحة. نفسه، ص. ١٠٤ وما بعدها.

(٣٨) الونشريسي. **المعيار**، ج.٨، ص. ٢٣٦ وما بعدها وج.١١، ص. ١٦-١٧. وقد أورد لنا القابسي التونسي (ت.٤٠٣هـ) أن "أجرة المعلم –منذ عهده- كانت على أشكال، إما معلومة كل شهر أوكل سنة، أو تترك للأولياء الحرية فإن أعطي قبل، وإن لم يعط لم يسأل". (أبو الحسن علي القابسي. **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، تحقيق أحمد خالد، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٦م، ط.١، ص. ١٣٩).

(٣٩) الونشريسي. نفسه، ج.١، ص. ١٣٩. ومن القابسي نقرأ أيضًا "أن اتخاذ مكان التعليم سواء كان بيتًا أو حانوتًا فهو على المعلم، إلا أن يُدعى إلى صبيان بأعيانهم" -كالنازلة التي بين أيدينا- (القابسي. نفسه، ص.١٤٥).

(٤٠) الونشريسي. نفسه، ج.٩، ص. ٤٣٤.

(٤١) نفسه، ج.٨، ص. ٢٦٠. ويبدوا أن ما كان يحدث بين الأبناء وآبائهم من جهة وبين الأساتذة من جهة أخرى، قد شغل شريحة كبيرة من المجتمع، الأمر الذي توضحه كثير من التساؤلات في هذا المجال، سواء عند المازوني أوفي المعيار للونشريسي، كما يخبرنا صاحب دوحة الناشر أن أحد أعلام مدينة وهران، والذي درّس بمدينة فاس، وهو أحمد شقرون بن أبي جمعة المغراوي (ت. ٩٣٠هـ) ألف كتابا في

هذا المجال سماه "جامع جوامع الاختصاص والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان". (الشفشاوني. مصدر سابق، رقم. ١٢٤، ص. ١٢٥-١٢٦).

(٤٢) **علي بن عثمان أبو الحسن**: عرفه التنبكتي بأنه من علماء بجاية وفقهائها الجلة، وقد نقل قول الشيخ عبد الرحمان الثعالبي (ت.٨٧٥هـ في الجزائر): "شيخنا أبو الحسن الإمام الحافظ، عليه كانت عمدة قراءتي ببجاية". (التنبكتي. نفسه، رقم. ٤٢٥، ص. ٣٣٢).

(٤٣) الونشريسي. المعيار، ج.٥، ص. ٩٣.

(٤٤) نفسه، ج.٨، ص. ٢٥٤ وج.٢، ص. ٤٧١-٤٧٢.

(٤٥) نفسه، ج.٨، ص. ٢٦١.

(٤٦) نفسه، ج.١، ص. ٣٩٤.

(٤٧) نفسه، ج.١٢، ص. ٣٧٥.

(٤٨) نفسه، ج.٨، ص. ٢٣٦ وما بعدها.

(٤٩) الونشريسي. المعيار، ج.٢، ص. ٤٩٧ و٥٠٣.

(٥٠) يُنظر: الصفحة رقم ٠٣ من المقال.

(٥١) يُنظر: الصفحة رقم ٠٣ من المقال.

(٥٢) ابن خلدون. العبر، ص. ٢٢٠.

(٥٣) نفسه، ص. ٢٩٣. وبما أن ابن خلدون حدّد الفرق بين المرحلتين بسن البلوغ (نفسه، ص.٢٩٢)، إلا أن المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا في دراسته القيّمة حول التربية والتعليم في الأندلس، جعل التفريق بين المستوى "الابتدائي" والمستوى "العالي" من الصعوبة بمكان، حيث يقول: "من الصعوبة أن نحدد على نحو دقيق متى يبدأ التعليم العالي وأين ينتهي... ولتحديد هذا المصطلح يمكن أن نقول إن التعليم العالي كل ما تجاوز المواد المقرر دراستها في التعليم الابتدائي، وهي مبادئ القراءة وحفظ القرآن، وإنشاد الشعر وحفظه دون فهم في أغلب الأحوال، ومبادئ النحو". (خوليان ريبيرا. **التربية الإسلامية في الأندلس –أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية** -، ترجمة الطاهر أحمد مكي، مصر: دار المعارف، ١٩٩٤، ط.٢، ص. ١١٨-١١٩).

(٥٤) يُنظر: الصفحة رقم ٠٢ من المقال.

(٥٥) **الزنديوي أبوعبد الله محمد بن محمد التونسي**: وصفه صاحب المعيار بقاضي قسنطينة وفقيهها، بينما وصفه التنبكتي بشيخ تونس في وقته وقاضي الأنكحة بها، توفي سنة ٨٨٢ه (الونشريسي. المعيار،ج.١، ص. ١٩٧. التنبكتي. مصدر سابق، رقم.٦٥٦، ص.٥٤٠-٥٤١).

(٥٦) الونشريسي. المعيار، ج.١، ص. ١٩٧-١٩٨.

(٥٧) **محمد بن يوسف السنوسي أبوعبد الله**: قاضي الجماعة في تلمسان، أطال كل من التنبكتي وابن مريم في مدحه وذكر مناقبه، وجلة شيوخه، ونقلا من كتاب تلميذه أبي عبد الله الملالي الذي ألفه عن شيخه وسماه" المواهب القدسية في المناقب السنوسية"، وكانت وفاته سنة ٨٩٥هـ. (التنبكتي. نفسه، رقم. ٦٩٦، ص. ٥٦٣-٥٧٢، ابن مريم. مصدر سابق، ص. ٢٥٧-٢٦٨).

(٥٨) **إبراهيم بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني أبو سالم**: هكذا سماه التنبكتي وأضاف: "الإمام العلامة الحافظ ابن شيخ الإسلام مفتي الأمة أبي الفضل قاسم، قاضي الجماعة في تلمسان، ولد سنة ٨٠٨هـ وتوفي سنة ٨٨٠هـ"، ونقل عنه المازوني في نوازله. (التنبكتي. نفسه، رقم. ٣٠، ص. ٦٥، ابن مريم. نفسه، ص. ٨٤. الونشريسي. وفيات، ص. ٧٨٤).

(٥٩) الونشريسي. المعيار، ج.٧، ص. ٣٤٧ وما بعدها.

(٦٠) نفسه، ص. ٣٥٣.

(٦١) نفسه، ج.٢، ص. ٤٦١- ٥٤٥ .

(٦٢) ابن خلدون. العبر، ص. ٢٧٨.

(٦٣) الونشريسي. نفسه، ج.٦، ص. ١٥٧.

(٦٤) ابن خلدون. نفسه، ص. ٢٨٩.

(٦٥) الونشريسي. نفسه، ج.٢، ص. ٤٨٣.